الطبيعة الإنسانية

كما يراها أبو العلاء المعري

— ٢ —

كامل كيلاني

الطبع والخُلق

على أن أبا العلاء يرى — بعدُ — أن الأخلاق تختلف وتتفاوت، وفي الشر خيار . فمنها المذموم ، والممدوح ، والنافع ، والضار ، والقاسي والرحيم ، وما الى ذلك من حميد الصفات ومرذولها . وهذه الأخلاق تأتلف وتختلف ما شاءت لها خصائصها وظروفها وملابساتها ، ولكن الطبع الفاسد الذي صيغت منهُ الجبلة الانسانية واحد لم يتغير جوهره — مهما تختلف فروعه ومظاهره أو تأتلف — في بعض النزعات المستحدثة الطارئة . الطبع واحد لا يتغير معدنه أبداً مهما يتميز هذا عن ذاك في الأخلاق التي ارتضاها الاناسيّ في حياتهم وتواضعوا عليها وألفوها . فهو يقول :

« ان مازت الناس أخلاق يُعاش بها — فإنهم — عند سوء الطبع — أسواء »

أو يقول : « والخلق شتى. ولكن ضمهم خلق — للشر . لم يلق بين الناس إبرازا »

« تفرع الناس عن أصل به دَرَنٌ — فالعالمون — اذا ميزتهم — فَرَعُ »

« سجايا كلها غدرٌ وخبثٌ — توارثها أناس عن أناس »

« لقد فقدوا الخير القليل تكلفاً — وجاءوا الذي جبلوا من شرهم طبعا »

« وفي الأصل غش والفروع توابع — وكيف وفاء النجل والأب غادر »

« فلا تحسدنا . كلنا ابن لئيمة — وهل تعذب الأثمار إن لؤم الغرس »

« والأرض ليس مرجوا طهارتها — إلاّ اذا زال عن آفاقها الإنسُ »

سيّان في ذلك الرجل والمرأة . فهو يقول :

« جرى الناس مجرى واحداً في طباعهم — فلم يرزق التهذيب أنثى ولا فحل »

أو يقول : « فشرٌ نعصرهم إعمار وعمدهم — وجنيٌ رجال منهم ونساء »

او يقول : «كلنا قادرٌ يميل الى الظلم ، وصنوفُ الأيام للتمكير »
«ورجال الانام مثل الغواني غيرَ فرقِ التأنيث والتذكير »

الجنس والنوع

ولن يقف سخط المعري عند هذا الحد ، بل هو يرتقي الى لعن الجنس والنوع ، يعني : جنسَ الأحياء وما يتفرع عليه من أنواع الحيوان والحشرات والانسان ، فيقول :

« أرى الحي جنساً ظل يشمل عالمي بأنواعه . لا بورك النوع والجنس »

ماذا ؟ بل إن شكّه ليغلي حتى يرقى الى العالم العالي : كواكبَ وسيارات، ومايمكن أن تحويه من كائنات ، فيسأل : هل تختلف الكواكب والسيارات كما نختلف ؟ :

« وهل الكواكب مثلنا في ديننا لا يتفقنَ ، فهائدٌ ، أو مسلم ؟ »

وهل يعتزُّ بعضها الى بعض بصلات المصاهرة والزواج وما الى ذلك ، وهل تصلي كما نصلي ، وتفجر كما نفجر ؟ :

« وتكذب ؟ إن المين في آل آدم خلائق جاءت بالنفاق وبالفجر»

***

على أنهُ بعد أن يلعن الانواع والاجناس عميمة ، يفرد الجنس الانساني بأوفر قسط من هذه اللعنات ، فيقول :

« فإن كان في دنياك شر معين فإنهم في ذاك أذكى المعادن»

ويقول . « شر أشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا
حملت بيضاً ، وأغربة ، وأتت بالقوم أجناسا
كلهم أخفت جوانحه ماردا في الصدر خناسا
لم تسق عذباً ، ولا أرجاً بل أذيات وأدناسا »

مركب النقص

ولا يفوته أن يندد بحقراء النفوس الذين يلجأون الى تقمص الكبرياء ليستروا بها ما تأصل في جبلتهم، وامتزج بفطرتهم، من شعور بالهوان والنقص . فيقول :

« لو لم تكن في القوم أصغرهم ما بان منك عليهم كبر »

وفي هذا البيت صورة من أروع الصور التي حللت مركب النقص وحللته في بيان سهل ممتنع أخاذ

الوعظ وسامعوه

وهو يلعن جمهور الواعظين الذين يتصدرون لوعظ الناس ، وهم يضمرون عكس ما يعلنون . فيقول :

«طلب الخبائث وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكونُ غير مصدق بقيامة أضحى يمثل في النفوس ذهولها»

أو يقول: «رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً ويشربها — على عمْد — مساء
يقول : « لقد غدوت بلا كساء » وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين — لا جهة — أساء »

ومتى انتهى شيخنا من اهداء تلك اللعنات الفنية الى سادتنا رجال الوعظ ، التفت الى سامعي مواعظهم فألقى عليهم باللائمة ، ووصفهم بأنهم اذا لاحت لهم الغنائم اندفعوا اليها فاتكين، كما تندفع الأسود الضارية الى تمزيق صيدها . فاذا وجهتهم الى الخير تبلدت قلوبهم، وأشبهوا الحمير في غبائها وترددها وبلاهتها ، فقال :

«يرقى على المنبر العالي خطيبهم وانما يعظ الأسياد والسمرا
هم الضباع اذا عنّت فرائسها وإن دعوت لخير حوّلوا حُمُرا »

على أنه — مع هذا كله — يرضى بالحقيقة الراهنة، ويوصي بأن نقبل الناس على علاتهم ، فيقول :

« هذي طباع الناس معروفة فخالطوا العالم أو فارقوا »

ثم يرتقي في فلسفته العالية في تهوين مشكلات الحياة ، فيقول

« إن حجة ما أكلت الأرض في نبا أقدامهم ، فمثل جدهم لعبا »

الانسان والحيوان

فاذا قلت له : [illegible] الناس كلهم في مثل صفاته ضعاف ، وبعدك عن الأرجاس والدنايا » زوى عنك وجهه غاضباً ، وقال : [illegible] ما أنا ببدع في الناس ، وما طبعي بمختلف عن طبعك وطبائع غيرك من الآدميين [illegible] فاذا كان ثمة فرق بيني وبينكم ، فهو أنني أشدكم ايغالاً في النقص والشر ، والاقبال على الدنيا الخادعة ، والبعد عن الصلاح [illegible] فأنا أظلم كما تظلمون ، وأخون كما تخونون ، وأنهب في الخيانة والبغي مثل ما تنهبون .

« فقلت ، وكلنا جانٍ ظالموم وظلمك في الخيانة مثل ظلمي »

وأفتن بالحياة الخادعة كما تفتنون ، وأعيش بالخداع كما تعيشون :